بمناسبة عيد الأمّهات

المجد للأمّ(*)

صيحة منفردة للشاعر الأندلسيّ المغاربيّ محمد بن هانئ

أ. د. محمد اليعلاوي
(تونس)

إنّ حضور المرأة عنصرا رئيسيّا في الأسرة والمجتمع، أمّا وزوجة وبنتا وأختا، حضور قليل في الشعر العربيّ القديم، إذا قسناه بحضورها الكثير حبيبة محبوبة في الشعر الغزليّ المقصود لذاته أو في المقدّمات الطلليّة المصطلح عليها بالنسيب.

نعم، نجد في القصائد التي تطرق الأغراض المتداولة من مدح ورثاء وفخر وهجاء، إشارات سريعة فيها إشادة بالمرأة زوجة متعققة في سلوكها، مقتصدة في سياسة بيتها، صائنة لعرض زوجها [طويل] :

أُمَيْمَةُ لا يُخــزي نَثَــاها[1] حليلَها ... إذا ذُكرَ النســوانُ عفّــتْ وجلَّــتِ

إذا هو أمســى آب قــرَّةَ عيــنِه ... مآب السعيدِ لم يسَــلْ أينَ ظلَّتِ[2]

أو بنتا متولّهة خائفة على أبيها وقد أزمع الرحيل لطلب الرزق [بسيط] :

(*) كتب أ. د. اليعلاوي هذا المقال بمناسبة عيد الأمّهات (ماي 2003).

(1) النّثا : إذاعة الحديث.

(2) المفضليّة 20 للشنفري.

تقول بنتي وقد أزمعتُ مرتحَلا   ياربّي، جنِب أبي الأوصابَ والوجعَا

أو أختًا تتوجّع لمقتل أخيها (رجز) :

نِعْـمَ الفتـى غـادرتُمُ بـرخـمـان[1]

هذا بقطع النظر عن الخنساء بنت الشريد التي ظلّت طوال حياتها تبكي أخويَها صخرًا ومعاوية.

ونجد المرأة بالخصوص في روايات أيّام العرب، نجِدُها بمثابة الحريم الذي يحميه الرجال من كلّ ضيم لأنّه يمثل الشرَف والعِرضَ : فهُنّ ردءٌ للمقاتلين يقفنَ وراء الصفوف يسقين الظامئين ويضمّدْنَ الجرحى ويثبّتن العزائم، وينذرن الجبناء بالقطيعة [وافر] :

أخَـذنَ علـى بُعُـولتِهِنَّ عـهـدًا   إذا لاقوا كـتـائـب مُـعْـلِمينَـا

لَيَـسْـتَـلِبُـنَّ أبْـدانًـا وبيضًـا   وأسرى في الحديـد مُقـرَّنيـنَـا

يَقُـتْنَ جيـادَنـا ويقُلـنَ لسْـتـمْ   بُـعُولَتَنا إذا لم تمـنَـعُـونـا[2]

أمّا الاعتزاز بالأمّ قبل الأب، فنجده في انتساب بعض السادات والأبطال إلى أمّهاتهم، مثل أوس بن سعدى الطائيّ خصيم بشر بن أبي خازم، نُسِب إلى أمّه سعدى بنت الحصين الطائيّة لا إلى أبيه حارثة بن لأم الطائي[3]. وأيضا عرف شعراء عديدون بأمّهاتهم حتى صُنِّفت في تراجمهم الكتب والقواميس[4].

---

(1) القتيل تأبّط شرّا، أنساب الأشراف، 217، ص 164.
(2) من معلقة عمرو بن كلثوم.
(3) انظر القصيدة الفزاريّة بتحقيق مصطفى الزمرلي، بيروت، 1995.
(4) مَن نُسب إلى أمّه من الشعراء لابن حبيب (ت 868/254).

إلاّ أنّ الإشادة بالأمّ صنوا للأب، كفؤا له في الحقوق والواجبات كما نقــول اليــوم، عديلا له في الوظيفة الاجتماعيّة وقيادة الأسرة وتنشئة الأولاد، وتــدبير المنــزل، هــذا النوع من الإشادة والإطراء نادرٌ جدّا، وجدناه تلميحا لا تصريحا في بيتٍ للمتنبي يعــدّد فيه فضائل أمّ سيف الدولة الحمدانيّ [وافر] :

ولو كان النســاءُ كمَــن فقــدْنَــا لفُــضّلتِ النســاءُ على الرجال[1]

فجاء حرف الامتناع "لو" مُقرًّا بوجود التفضيل والتمييز كظاهرةٍ اجتماعيّةٍ ثابتــة، لا يخفف من وطأتِها تلاعبُ الشاعر بعدها باللغة مقابلا بين ما حقه التذكير فأنّثَ وما حقّــه التأنيث فذَكّرَ :

وما التأنيــث لاسْــم الشمس عيبٌ وما التــذكيــر فخــرٌ للــهــلال

والتسوية بين الذكر والأنثى على الأقلّ في الشعارات السياسيّة والبــرامج الانتخابيّــة أصبحت اليوم معنى مطروقا عاديّا، بسبب التطوّر الاجتمــاعي أوّلا، وخاصّــة بفضــل نزول المرأة نفسها إلى معترك الحياة لافتكاك مزيد من الحقوق وإثبات كفاءتها وتوســيع ميادين نشاطها، فانتقلت هذه المطالب إلى أدبِ اليومِ وألّفت فيها الكتب النســائيّة وحتــى الرجاليّة ونوقشت فيها البحوث والأطروحات، وتَبَنّتها الأحــزاب والجمعيّــات مبشّــرة بمساواة حقيقيّة بين شطري المجتمع.

هذا في مجتمع اليوم، أمّا في العهود الماضية، فقلّ ما نجد دعوةً من هذا النوع، فــإذا عثرنا على مقطوعة في فضل الأمّهات أدرجها محمد بن هــانئ فــي رثــاء أمّ أميــر المسيلة، كما أدرج المتنبّي الأبيات المشار إليها سالفا في رثاء أمّ أمير حلــب، آرتحْنــا إليها واستطرفناها واعتبرناها خارجة عن المألوف في المراثــي، مــن تعــداد خصــال المرثي وتعظيم الرزيّة فيه ودعوة ثاكليه إلى التحلّي بالصبر والسلوّ.

[1] اللاميّة في رثائها، ومطلعها : نعدّ المشرفيّة والعوالي...

هي سبعة أبيات من 86 بيتا صاغها الشاعر على شكل خواطـــر شخصيّة لا يتوجّه بها إلى مخاطب مخصوص كأنّه بهذا التعميم يريد أن يُضفِي على كلامه صبغة الحُكـــم العامّ الذي لا يحتاج إلى استدلال. يقول ابن هانئ [متقارب] :

1- لأمّـــاتـــنا نِصْـــفُ أنســـابِنَـــا	إذا المـــلِـــكُ القَـــيلُ مِنّـــا انتـــمـــى
2- دعـــائمُ أيّـــامِنَـــا في الفخـــار	وأكـــفاءُ آبـــائِنـــا فـــي العُـــلـــى
3- ألـــمْ تَـــرَهُـــنَّ يُـــبـــاريـــنَـــنَا	فَـــيَمْـــرُقْـــنَنَا وينـــلـــنَ المَـــدَى ؟
4- كفَـــلْـــنَ لنـــا بظلالِ الخـــيام	وأكْفَـــلْـــنَـــنَا بـــظِـــلالِ القَـــنَـــا
5- فنـــغدو، فمِـــنهُنّ أسمَـــاعُنـــا	وأبصـــارُنا في حـــجـــالِ المـــهـــا
6- فلو جاز حكميَ في الغابريـــن	وعَـــدّلْتُ أقـــســـامَ هـــذا الـــورى
7- لسمّـــيتُ بعضَ النساء الرجال	وسمّيتُ بعضَ الرجـــــــالِ النّســـا[1]

هذه الإشادة بفضل الأمّ فريدة من نوعها فيما نعلم من الشعر القديم، وهي تقوم حجّـــة في يد الجماعات النسائيّة لنيل مساواةٍ حقيقيّة مع الرجال، وهي تصلح أن تتّخـــذ شـــعارًا لعيد الأمّهات في شهر ماي من كلّ سنة، وهي تخفف من وجهٍ آخر ما يـــتّهم بـــه الأدب العربيّ من عصبيّة رجاليّة.

فللأمّهات (أو الأمّات دون الميز اللغوي بين العاقل وغير العاقل) نصفُ الفضل فـــي تربية الأولاد وتوجيههم نحوَ المعالي فيصبحُوا سادةً ملوكًا كأقيال اليمَن، فـــلا بـــدعَ أن يقال للأسرة الحمدونيّة الحاكمة بالمسيلة في الزاب الجزائريّ "أبناء الأندلسيّة"، والشـــاعر نفسه يفخَر بأصله الأزديّ اليمنيّ، وكذلك جعفر بن حمـــدون، فحصـــر الشـــاعر هـــذا الاشتراك في النسب اليمنيّ في عبارة "منّا" (البيت الأوّل). والمســـاواة بـــين الأمّ والأب

[1] ديوان ابن هانئ من تحقيقنا، ص 35.

تتدعّم في البيت الثاني بعبارة "أكفاء" فهنّ أصْناءٌ أندادٌ للرجال في دفع الأولاد إلى نيل الفخار وارتقاء القمم[1].

وفي البيت الثالث ينقلب التساوي إلى تفاضل معكوس : الأمّهات صرن يسابقن الرجال فيَفُزْن بالسبْق، ويخرجْن من الحلبة فائزَاتٍ وقد بلغن الغاية. والشاعر يعبّر عن اقتناعه بسبقهنّ أو تمنّيه له بصيغة الاستفهام التقريري بدون استشهاد بمثال من أعلام النساء.

ثمّ يعود إلى توزيع الأدوار، فيثبتُ دَوْرهُنّ في البيت من تربية وتنشئة على الأخلاق الفاضلة، ويثبت دور الرجال في حمايتهنّ وصيانة حرمتهنّ بالسلاح، فيطابق بين حماية أولّيّة عاطفيّة في دفء البيت وحماية خارجيّة رجاليّة في ساحات القتال، وعبّر عن هذه المطابقة بفعليْ كفلْن أي تكفّلن وأكفلْنَ أي طلبن منّا أن نكفلهُنّ (البيت الرابع) ويتبسط في التربية الأولى : فبحدبهنّ على الأبناء يكتسب الطفل منهم السمع والبصر أي القدرة والبصيرة والاستعداد والقوّة فيُخلقُ خلقا جديدًا.

ويختم احتجاجه للتسوية المطلوبة بافتراض كافتراض صنوه ومعاصره المتنبّي[2] : لو أمكنني تعديل القسمة الضيزى لأحللتُ النساء محلّ الرجال.

نحن لا نزعم أنّ هذه المقطوعة المتعثرة فتحٌ مبين في أدبنا القديم، ولا نرتجي من ذكرها ومحاولة شرحها تغييرًا جذريًّا لنظرة معاصرينا إلى الحضارة العربيّة الإسلاميّة، ولعلّ الشاعريْن في المرثيّتين انساقا إلى هذا الاستطراد الطريف، لا لنزعة إصلاحيّة مكبوتة، بل تزلّفا إلى الأميرين الثاكلَيْن، ورفع خصال الفقيد إنّما هو تقرّب إلى الفاقد.

---

(1) هذا على ما في الصدر من غموض.

(2) يسمّى ابن هانئ أحيانا متنبّي الغرب، انظر مقارنتنا بين الشاعرين في كتابنا أشتات في اللغة والأدب، ص 133.

بل لا نجازف إذا ذهب بنا الظنّ إلى أنّ صاحبنا المغاربيّ[1] رمى إلى غاية أخرى : الدعوة إلى مذهب الشيعة الإسماعيليّة التي تنتسب إليها الدولة الفاطميّة الفتيّة. فقد طعن خصومهم من أهل السنّة في صحّة انتسابهم إلى فاطمة الزهراء وبالتالي إلى آل البيت، بل ظلّ أهل القيروان ثمّ المؤرّخون عندنا يسمّونهم "بني عبيد" صعودا إلى عبيد الله المهديّ مؤسّس الدولة سنة 908/296. ومنهم من يكتفي بلقب "العلويّين" أو يَصْعُدُ إلى "الطالبيّين". هذا، على الرغم من وقوع لقب الفاطميّين عند شعراء سابقين [طويل] :

من الفاطميّين الدعاة إلى الهدى جهارا، ومن ينجيك غير ابن فاطم ؟[2]

وابن خلدون نفسه –وهو مقرّ لنسبهم الفاطميّ– يدعوهم أحيانا "الفواطم" بجمع التكسير تثبيتا لصلتهم ببنت الرسول (صلعم)، ومحمد بن هانئ في ديوانه أشاد غير مرّة بفاطمة [كامل] :

أبناءَ فاطمَ، هل لنا في حَشْرِنَا لجأ سواكُمْ عَاصمٌ ومُجَارُ ؟[3]

وبهذه الإشادة أصبح فيما بعد الشاعر الرسميّ للدولة حتى استصحبه المعزّ في انتقاله إلى عاصمته الجديدة القاهرة "ليباهي به شعراء المشرق" فلم يكتب له ذلك إذ مات في طريقه إليه ببرقة. فقد يكون هذا التصويت للأمّهات "مع أو دون الآباء" تصويتا خفيّا للأسرة المنتصبة بالقيروان المزاحمة للعبّاسيين ببغداد وللمروانيين بقرطبة.

---

(1) محمد بن هانئ، لئن وُلد بالأندلس فقيل له الأندلسيّ، فقد هاجر إلى برّ العدوة فلقي جوهرا الصقلّي بفاس، ثمّ عاش مدّة بالمسيلة عاصمة الزاب الجزائريّ، ودخل أخيرا في خدمة المعزّ لدين الله الفاطميّ فنظم فيه قصائد معزّيّات اشتهرت مثل سيفيّات المتنبّي.

(2) البيت لبشار بن برد.

(3) الديوان ص 185، من القصيدة التي عيب عليه غُلوُّها في تقديس المعزّ : ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار.